الفصل الأول

عصر الشريف الرّضى

١ – الحياة السياسية

ولد الشريف الرضى سنة ٣٥٩ هـ ، وتوفى ببغداد سنة ٤٠٦ هـ ؛ وبذا يكون قد عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وأدرك ست سنوات من القرن الخامس . والحق أن القرن الرابع مملوء بالأحداث الكثيرة الخطيرة التى كانت ذات بال فى تاريخ العرب والإسلام والخلافة العباسية .

لقد تميز القرن الذى ولد فيه الشريف الرضى بظهور الدعوة الفاطمية ، ودخول جوهر الصقلى مصر سنة ٣٥٨ هـ ، ودخول الخليفة المعز لدين الله الفاطمى مصر سنة ٣٦٢ هـ ؛ بعد أن مهد له جوهر ، وأقام له الدعوة ، وبنى له مدينة القاهرة ... وكان الفاطميون ينافسون العباسيين على الخلافة ، فدعى لهم على منابر المساجد فى مصر وأفريقية والشام واليمن ، بل استفحل الأمر فى سنة ٣٦٤هـ فوقعت الخطبة بمكة والمدينة للمعز لدين الله الفاطمى ، وفى سنة ٣٦٥ هـ حج بالناس فى موسم الحج علوىٌّ من جهة العزيز الفاطمى ، وانقطعت الخطبة للعباسيين بالحرمين الشريفين منذ أصبح الفاطميون أصحاب نفوذ على الأراضى المقدسة .

ولقد اشترك الشريف الرضى وأخوه الشريف المرتضى فى بعض مواسم الحج ، وشهدا بعينيهما كيف أن نائب الفاطميين بالحجاز اشترط أن تقام الخطبة للحاكم بأمر الله الفاطمى ، واضطر الخليفة العباسى مرغماً إلى قبول هذا الشرط .

وبلغ من اجتراء الفاطميين على خلفاء بنى العباس وعلى البويهيين أصحاب السلطان فى العراق ، أن عضد الدولة بن بويه – صاحب الأمر والنهى بالعراق – سُرق له زبزب من الفضة على صورة السبع كان يضعه على صدره ، ثم قلبت

الأرض بحثًا عن سارقه ، فلم يوقف له على أثر ؛ وقيل إن الخليفة الفاطمى بمصر دسّ من فعل هذا بعضد الدولة ، على الرغم من هيبته المفرطة[1] وشدة معاقبته على أقل جناية . . .

ويتميز القرن الرابع الهجرى — فيما تميز به من أحداث جسام — بظهور دولة بنى بويه التى بدأت فى العراق سنة ٣٣٤ هـ ، حيث نزع رجالها السلطة الحقيقية من أيدى خلفاء بنى العباس ووضعوها فى أيديهم . وأصبح الخليفة العباسىّ لا يزيد على رئيس دينى لا أمر له ولا نهى ، ولا كلمة له مسموعة ، وإنما الأمر كله بيد السلطان من بنى بويه ، الذين خلع العباسيون عليهم الألقاب الفخمة ، وأذنوا لهم فى أن تضرب ألقابهم وكناهم على النقود . . .

ولم يكن نفوذ بنى بويه — وهم من الديلم — هو الوحيد فى العراق عامة وبغداد خاصة ، فقد كان الأتراك ، وعلى رأسهم « سبكتكين » يمثلون جبهة أخرى للنفوذ الأجنبى فى العراق العربى . ولقد كان لكل من الجبهتين منزع مذهبى يناقض منزع الآخر . فبنو بويه يؤيدون المذهب الشيعى ويحمونه ويتعصبون على أهل السنة ، والأتراك يميلون إلى مذهب أهل[2] السنة ويناصرونهم . وكان من الطبيعى أن يكون الصراع بين هاتين الجبهتين الأجنبيتين المتنافستين غير العربيتين على حساب العنصر العربى كله . . والأدهى من ذلك أن الدويلات التى انقسمت إليها الدولة العباسية كان أكثرها دولا غير عربية : كالسامانية فيما وراء النهر ، والزيارية بجرجان ، والبويهية بالعراق وفارس ، والغزنوية بأفغانستان والهند . ولعل الدويلات العربية التى ظهرت فى ذلك العصر كانت رد فعل لظهور الدويلات الأجنبية ، فكأنها قامت لتؤكد الكيان العربى ، ولو أنها لم تبلغ من القوة والكثرة مبلغ الدول غير العربية ، كالدولة الحمدانية بحلب والموصل ، ودولة بنى شاهين بالبطائح . ولقد كان ناصر الدولة بن حمدان

---

(١) المنتظم لابن الجوزى جـ ٧ ص ١٠٧ فى حوادث سنة ٣٧١ هـ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٨ جـ ٧ ، وتاريخ آداب اللغة العربية لزيدان جـ ٢ ص ٢٢٤ ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ص ٤٢٤ .

أمير الحمدانيين بالموصل يتربص الدوائر بمعز الدولة بن بويه سلطان العراق ويريد الإغارة على ما بيده . ومن عجب أن استقلال العرب الحمدانيين بحلب وجزيرة الفرات والموصل لم يكن تامًّا ، فقد كان النفوذ فى دوانيهما لجماعة من القواد الأتراك . . .

وامتد الصراع على السلطان والنفوذ فى ذلك العصر بين بنى بويه أنفسهم ، ففى سنة ٣٦٤ هـ شغب عضد الدولة على ابن عمه عز الدولة بختيار حينما كانت لهذا إمارة العراق . وفى سنة ٣٧٦ هـ ، شهدت أرض العراق قصة النزاع بين الأخوين صمصام الدولة ، وأخيه شرف الدولة ابنى عضد الدولة بن بويه . . .

ولم تدع هذه الجبهات المتصارعة ، والأطراف المتنازعة ، مجالا للهدوء فى العراق وبغداد . فلا يكاد يمر يوم دون فتنة تحدث ، أو شغب يقع ، سواء أكان خلافاً بين الديلم والترك ، أم بين السنة والشيعة . ونذكر على سبيل المثال ذلك الشغب الذى حدث من الديلم فى سنة ٣٨٣ هـ ، فيروى لنا ابن الجوزى المؤرخ أنهم شغبوا شغباً شديداً (لأجل فساد النقد ، وغلاء السعر وتأخر العطاء . ومنعوا من الصلاة بجامع الرصافة . فلما كان بكرة السبت قصدوا دار أبى نصر سابور ، بباب خراسان ، وهجموا فنهبوها ، وأفلت من بين أيديهم هاربًا على السطوح ، وثارت بذلك فتنة دخلها العامة . . .)

وكأن العراق لم تكفه هذه الفتن ، فاشتدت عليه فتنة القرامطة الذين بدءوا بالظهور فى القرن الثالث الهجرى ، وامتدت بهم الفتن إلى القرن الرابع . ففى أول عهد الشريف الرضى بالشباب الباكر سنة ٣٧٣ هـ وافى جيش منهم إلى البصرة ، وخاصة بعد أن أطمعهم موت عضد الدولة بن بويه الذى كان قوى الشكيمة ، فصالحوا على مال أعطوه ، وانصرفوا إلى مكان دعوتهم . وفى ٣٧٥ أعادوا الكرة على الكوفة فتغلبوا عليها وأقاموا الخطبة لشرف الدولة بن بويه مصانعة له على أخيه صمصام الدولة . وقد عاثوا فى الأرض فسادا ، وأكبوا على تناول الغلات ، واستخراج الأموال من أصحابها ، ولكن عسكرا من بغداد توجه إليهم فصرفهم .

وقد آذنت بداية القرن الرابع الهجرى بهجمات شديدة من الروم على

أطراف المملكة الإسلامية . وأخذوا يتحرشون بالعرب فى كل مكان متاخم لهم أو قريب منهم . ففى سنة ٣٠٣هـ — كما يروى ابن الأثير — أغارت الروم على الثغور الجزرية ، وقصدوا حصن منصور ، وَسَبَوْا من فيه ، وجرى على الناس أمر عظيم ، وشغلوا عن ملاقاة العدو بفتنهم الداخلية ... وفى سنة ٣١٣ هـ ، استولى الروم على مدينة ملطية فخربوها ، ولما رأى أهلها ما حل بها من التخريب هربوا لاجئين إلى بغداد — باعتبارها عاصمة الخلافة — مستغيثين بها فلم يغاثوا... وقبل مولد الشريف الرضى بعام واحد دخل الروم « كفرتوثا » فَسَبَوا وقتلوا المئين من أهلها ، ثم تقدموا إلى حمص فوجدوا أهلها قد انتقلوا عنها ، فأحرقوها ونكسوا فى الثغور الإسلامية . وفى سنة ٣٥٩ هـ — وهى السنة التى رأى فيها الشريف نور الحياة — غزا الروم بقيادة ملكهم نقفور مدينة أنطاكية ، فألجأوا الشيوخ والعجائز والأطفال إلى الفرار ، وَسَبَوْا من الغلمان والأطفال والشبان والنساء أكثر من عشرين ألفا . . .

وفى سنة ٣٦٢ هـ ، دخل الروم مدينة نصيبين ، واستباحوا حُرَمها ، وقتلوا وأسروا كثيراً من الرجال والنساء والصبيان . وفاض بالعرب والمسلمين الكيل مما يلقونه من تحرش الروم وعدوانهم كل يوم ، فلجأ كثير من أهل الثغور الإسلامية إلى بغداد هاربين أو مستنجدين بالخليفة العباسى — وهو أضعف من أن يُبرم أمراً — فانتشروا فى الجوامع ، وكسروا المنابر ، ومنعوا الخطبة ، وحاولوا الهجوم على دار الخليفة المطيع لله ، واقتلعوا بعض شبابيكها ، وقام حرس القصر يصدون عدوان الثوار ، فازداد هياج اللاجئين ، وخاطبوا الخليفة بما لا يليق ، ونسبوه إلى العجز عما أوجبه الله على الأئمة ، وأفحشوا القول . . . ولم يجد عز الدولة البويهى بدًّا من التدخل فوعد بغزو الروم واستنفر الناس للجهاد . وهنا أعاد الله للعرب القوة والتماسك فخرج جيش المسلمين يغزو الروم ، فهزموهم وأسروا منهم كثيراً على رأسهم أميرهم والبطارقة ، وبعثوا برءوس القتلى إلى بغداد شفاء لصدور المسلمين . . .

وكان من الطبيعى أن تؤدى هذه الأحوال مجتمعةً إلى ضعف الخلافة العباسية

وقلة هيبتها . وبلغ من ضعفها أن قواد الأتراك والديلم كانوا يولون من الخلفاء ويعزلون من يشاءون ، كما أصبح السلاطين والأمراء يتولَّون ذلك . فالقائد الديلمي « توزون » يقبض على الخليفة العباسي المتقي ويعزله سنة ٣٢٣ هـ ، ويبايع بدلا منه المستكفي بالله . . . والمستكفي بالله نفسه لم يمكث في الخلافة إلا سنة وأربعة أشهر ، فقد توهم معز الدولة البويهي أنه يدبر عليه ، فدبر له هو خلعه بأن دخل عليه اثنان من الديلم ، فتناولا يديه فمدها ظانًّا أنهما يريدان تقبيلها . . . فجذباه من فوق سرير الخلافة وطرحاه على الأرض وجرَّاه بعمامته . . . ثم ساقوه ماشيًا إلى دار معز الدولة . . . فخلع وسملت عيناه . . .

والذي فعله معز الدولة البويهي مع الخليفة المستكفي ، فعله بعد ذلك بهاء الدولة البويهي مع الخليفة الطائع سنة ٣٨١ هـ ، فقد دخل عليه بهاء الدولة ومعه عدد كثير من الديلم ، فلما دخل على الخليفة قبل الأرض كما جرت العادة ، وأجلس على كرسي ، وهنا دخل بعض الديلم كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة ، فجذبه وأنزله عن سرير الخلافة بشدة ، والخليفة يستغيث ويقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فلا يغيثه أحد ، وتصادرُ حجره وخزائنه وخدمه وحواشيه ، وتخرس زوج الخليفة وهي أخت بهاء الدولة فلا تستطيع حتى الاحتجاج على أخيها . ويكتب الطائع كتابًا بخلع نفسه وتسليمه الأمر إلى القادر بعده . . .

وبلغ من هوان الخلفاء على السلاطين والأمراء أنهم كانوا هم الذين ينزلون من قصورهم ليتلقوا السلاطين ، ويستقبلوا الأمراء ، ففي حوادث سنة ٣٧٠ هـ ، يذكر المؤرخ ابن الجوزي أن الخليفة الطائع خرج ليستقبل عضد الدولة بن بويه حين مجيئه إلى بغداد . . . ولم تكن العادة جارية بخروج الخلفاء لتلقي أحد من الأمراء . وقبل ذلك خرج الخليفة المطيع من قصره ليقدم العزاء إلى معز الدولة البويهي في وفاة أخته فاطمة . . .

ب ـ الحالة الاجتماعية

إن عصراً مضطرباً كثير الفتن ، موزع الدويلات ، شديد الصراع بين التيارات الكثيرة المتموجة لا بد أن يكون المجتمع فيه على غراره مضطرباً متموجاً ، عديم القرار ، معطل الحركات . وإذا كنا لاحظنا فى الفصل السابق سقوط هيبة الخلفاء ، فإنا نشير هنا إلى سقوط هيبة بعض الوزراء ، مما جعل زمام الأمور كلها مضطرباً فى الدولة الإسلامية . فالوزير أبو محمد المهلبي — وهو من بيت الحكام الإداريين القدماء من عهد الأمويين — يتلقى من السلطان البويهى معز الدولة مائة وخمسين مقرعة ، على هيئة « علقة ساخنة ! » ، ويحبس فى داره على سبيل « الحجز التحفظى » فلا يزور ولا يزار . . . ويجىء عز الدولة بختيار بن معز الدولة فيستوزر صاحب مطبخه . . . وكان يحمل الغضاير بيده ، ويتشح بمناديل الغمر ، ويذوق ألوان الطعام عند تقديمها . . . واسمه (ابن بقية) ، فلما صار وزيراً أصبح الناس يقولون : من الغضارة إلى الوزارة[1] .

ولما ضعف أمر الإمارة والوزارة والإدارة صار ضرورياً أن تكثر الفتن ، ويحدث الشغب ، ويقع بعض المجاعات ، وترتفع الأسعار إلى مالا قِبَلَ للناس باحتماله ، وتفشو الأمراض ، ويظهر العيارون واللصوص وقطاع الطرق . . . فمن المجاعات ما حدث فى سنة ٣٧٣ هـ ، فقد زادت الأسعار زيادة مفرطة ، ولحق الناس مجاعة عظيمة ، وارتفع سعر الحنطة إلى حد كبير ، فضج الناس وحطموا منابر الجوامع ، ومنعوا الصلاة فى عدة جمع ، ومات كثير من الضعفاء جوعاً على الطريق .

وفى سنة ٣٧٧ هـ ، زاد الغلاء وارتفع سعر الدقيق الخشكار (غير الناعم) ارتفاعاً فاحشاً فجلا الناس عن بغداد تفادياً لموجة الغلاء . وفى سنة ٣٧٨ هـ ،

---

(١) المنتظم جـ ٧ ص ٦١ حوادث سنة ٣٦٢ هـ

غلت الأسعار وعدمت الأقوات حتى مات كثير من الناس جوعاً . وفى سنة ٣٩٣ هـ ، ارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً ، وعدمت الحنطة من الأسواق وبلغ ثمن الكرّ منها مائة وعشرين ديناراً ، وهو رقم لم يسمع الناس بمثله . . .

أما الأوبئة والأمراض فقد اصطلحت على المجتمع العربى فى خلال ذلك العصر ، فى سنة ٣٧٦ هـ ، — على سبيل المثال — كثر الموت فى أول العام الهجرى بالحميات الحادة ، فمات من الناس خلق كثير . . . وفى السنة التى مات فيها الشريف الرضى وقع فى البصرة وباء شديد ، وبلغ من كثرة الموتان أن الحفارين عجزوا عن حفر القبور . . .

ولم يكفّ الناسَ ما أصابهم من الغلاء والمجاعات والأوبئة ، فعاشوا فى خوف ورعب دائمين من حوادث اللصوص وقطاع الطريق . فى سنة ٣٦٤ هـ ، أحدث العيّارون حريقاً هائلا بالخشابين من باب الشعير ، فاحترق أكثر هذه السوق وما يليها من سوق الجزارين وأصحاب الحصر ، فهلك من ذلك كله شىء كثير . وزاد أمر العيارين فساداً فى هذه السنة ، فركبوا الدواب جهاراً ، وتلقبوا بالقواد ، وغلبوا على الأمور ، وأخذوا رسوماً للخفارة على الأسواق والدروب . . . وظهر فى هذه الفترة عيّار قائد يدعى « أسود الزبد » لأنه كان يأوى قنطرة الزبد كما يقول المؤرخ ابن الجوزى ، وكان ينهب الأموال ويشترى الجوارى بأغلى الأثمان . . .

وفى سنة ٣٨٠ هـ ، زاد أمر هؤلاء العيارين فى جانبى بغداد مدينة السلام ، ووقعت بينهم حروب ، وعظمت بينهم الفتن ، واتصل القتال بين الكرخ وباب البصرة ، وصار فى كل حرب أمير ، وفى كل محلة متقدم ، وانتشرت الحرائق المتعمدة ، ونهبت الأموال ، واتصلت الكبسات . وهنا نجد الشريف أبا أحمد الموسوى ، والد الشريف الرضى ، لا يعزل نفسه عن الأحداث والفتن ، بل يدخل فيها محموداً بحسن توسطه ، وكريم سعيه . . .

أما حوادث قطع الطريق فقد كثرت بصورة تلفت النظر . فى سنة ٣٧٠ هـ كان رجل اسمه الصيدلاوى يقطع الطريق إلى أن احتال عليه بعض الولاة فقتله

وحمل رأسه إلى بغداد . وفى سنة ٣٧٢ هـ ، كانت عصابة من بنى شيبان يقطعون الطريق، فأوقع بهم عضد الدولة البويهى وأسر منهم ثمانمائة . . . وفى سنة ٣٨٤هـ اشتد أمر العيارين وقطاع الطرق . وظهر عيّار خطير اشتهر أمره ، اسمه عزيز ، وانضم إليه كثير من الذُّعّار . وفى سنة ٣٩٢ هـ ، انتشر الذُّعّار وقطاع الطرق، وانتشرت الفتن ببغداد ، مما اضطر بهاء الدولة البويهى أن يبعث عميد الجيوش أبا على بن أستاذ هرمز إلى العراق ليدبر أمورها ، ويضع حدًّا للفساد فيها .

ولا نستطيع أن نمر بحوادث اللصوص والعيارين فى العراق دون الإشارة إلى اللص الكبير « ابن حمدى » الذى ظهر ببغداد فى سنة ٣٣١ هـ ، وأعيا السلطان أمره ، وقد أشار إليه المؤرخ ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٣٢ هـ .

ويتصل بقطع الطريق الخروج على الحجاج ونهبهم فى مواسم الحج حين الذهاب والقفول . ففى سنة ٣٥٤ هـ ، قطع بنو سليم الطريق على قافلة المغرب ومصر والشام ، وكانت قافلة عظيمة فيها كثير من الحجاج التجار والمنتقلين من الشام إلى العراق هربًا من غارات الروم . ونهب اللصوص كل أموال القافلة ومتاعها ، وزادوا فأخذوا جمال القافلة ، فصار رجالها جميعًا رجّالة منقطعًا بهم . . . وفى سنة ٣٦٤ هـ ، اعترض بنو هلال قافلة الحجاج ، فنهبوا شيئًا كثيراً ، وقتلوا خلقًا كثيراً ، وبطل الحج فى ذلك العام ، ولم يسلم من الحجاج إلا من كان فى ركب الشريف أبى أحمد الموسوى والد شاعرنا الشريف الرضى . . .

وهل ننسى ما فعله ابن الجرّاح الطائى[1] بقافلة الحج سنة ٣٧٩هـ ، فقد خرج على الحاج بين سميراء وفيد ، ونازلهم ، ثم صالحهم على مبلغ كبير من المال يدفعونه إليه ، وعلى كثير من الأمتعة والثياب . . .

وبلغ من اجتراء قطاع طريق الحاجّ أنه فى سنة ٣٨٤ هـ ، اعترضهم الأصيفر الأعرابى المشهور ومنعهم أن يجتازوا ، وذكر أن الدنانير التى أعطيها فى العام الماضى كانت دراهم مطليّة ، وأنه لا يفرج لهم عن الطريق إلا بعد

---

(١) ذكر الأستاذ رشيد الصفار المحامى محقق ديوان « الشريف المرتضى» ان اسمه « ابن البراج » الطائى . ولعله تحريف مطبعى : ج ١ ص ٥٢ .

أن يعطوه مال عامين . . . فترددوا وعادوا ولم يحجوا فى عامهم هذا . . .

وفى سنة ٣٩٩ هـ ، اعترض ابن الجراح الطائى حاج بغداد ، كما اعترض بنو رعب الهلاليون — وكان عددهم ٦٠٠ رجل — حاجّ البصرة وأخذوا منهم ما يزيد على ألف ألف دينار . . .

وليس غريباً أن هذه الفتن والمجاعات والكبسات لم تدع أهل بغداد مستقرين فى بلدهم ، فكثيراً ما كانوا يهجرونها مع قافلة الحجاج إلى الشام ومصر طلباً للأمن والقرار . . . كما نجده فى سنة ٣٣١ هـ ، وفى سنة ٣١٣ هـ ، قبل ذلك .

ولم يترك الأمراء الناس أحراراً ينفسون عن صدورهم بما يقولون ، فقد كانت تحصى عليهم الكلمات ، وتؤخذ عليهم العبارات ، ويقوم بالتسجيل والتبليغ جماعة من المتخصصين فى التجسس على الناس . ولا نستشهد هنا بأحسن من عضد الدولة بن بويه ، فكان يبحث عن أسرار الملوك وينقب عن سرائرهم . وكانت أخبار الدنيا عنده ، حتى لو تكلم إنسان بمصر كلمة لوصلت إليه . وقد رقى إليه أن رجلا بمصر ذكره بكلمة ، فاحتال حتى جاء به إليه فى العراق ووبخه عليها ، ثم رده ثانية إلى مصر! فكان الناس — كما يروى ابن الجوزى المؤرخ — يحترزون فى كلامهم وأفعالهم من نسائهم وغلمانهم[1] . . .

ولقد ظهرت فى المجتمع الشيعى — وخاصة العراق — ظاهرة النَّوح على الحسين الشهيد فى يوم عاشوراء . وقد ساعد بنو بويه الشيعيون على المبالغة فى هذه الظاهرة ، مما كان يثير سخط أهل السنة ، بما كان يقوم به عوامُّ الشيعة من سب بعض الصحابة وسب معاوية . فى سنة ٣٥٢هـ وفى العاشر من المحرم — وهو ذكرى مصرع الحسين — غلقت الأسواق ببغداد ، وعطل البيع ، ولم يذبح القصابون ، ولا طبخ الهراسون ، ولا ترك الناس أن يستقوا الماء ، ونصبت القباب

---

(١) لقد كان الشريف الرضى غرضا لهذا التجسس والرقابة ، فإذا قال قصيدة بلغت مسامع الأمراء والسلاطين والخليفة فى التو والحال ، كما حدث لقصيدته اليائية التى تمنى فيها اللجوء إلى الفاطميين بمصر . انظر الباب الخاص بالشاعر الطموح .

فى الأسواق وعلقت عليها المسوح ، وخرج النساء منتشرات الشعور يلطمن ويُنُحْنَ . . . وحدث مثل ذلك فى سنة ٣٥٣ هـ وإن كانت المسألة انتهت بحدوث فتنة عظيمة بين السنة والشيعة ، جرح فيها كثير ، ونهب الناس بعضهم بعضًا . وفى سنة ٣٥٦ هـ ، عمل الشيعة ما يعملونه من النوح كل عام ، وكذلك فى سنة ٣٥٧ هـ ، وسنة ٣٥٨ هـ ، وسنة ٣٥٩ هـ . وظل العمل جاريًا على هذا الرسم الذى كان مجالا لتفاقم الخلاف بين السنة والشيعة ، إلى أن كانت سنة ٣٨٢هـ ، فأمر أبو الحسن الكوكبى المعلم—وكان متسلطًا على السلطان البويهى — بأن يمنع أهل الكرخ وباب الطاق من النوح فى عاشوراء ، ومن عمل المسوح . وكذلك فعل عميد الجيوش فى سنة ٣٩٣ هـ ، فأصدر أمره بأبطال هذه المراسم .

والحق أن البويهيين — بما كان لهم من مطامع بعيدة وخطر على الخلافة العباسية — مسئولون إلى حد كبير عن تفاقم أسباب الخلاف بين أهل السنة والشيعة . فقد كان لهم مصلحة فى هذا الخلاف ليصلوا به إلى مآربهم السياسية . وكان معز الدولة البويهى يغض طرفه عما كان يفعله الشيعة ويكتبونه على مساجد بغداد استفزازاً لأهل السنة . ففى سنة ٣٥١ هـ ، كتب العامة على مساجد العاصمة العباسية لعن معاوية ، ولعن من غَصَبَ فاطمة « فدكا » ، ومن أخرج العباس من الشورى ، ومن نفى أبا ذر الغفارى ، ومن منع من دفن الحسن عند جده عليه السلام . ولكن معز الدولة البويهى لم يحرك ساكنًا نحو هذه الظاهرة ولم يمنع منها . . . ولم يسكت أهل السنة أمام هذا التحرش ، بل كانوا يقابلون الاعتداء بمثله ، وإن كانت قدرتهم على المنع محدودة لكثرة الشيعة فى العراق وبغداد من ناحية ، ولأن السلاطين والأمراء معهم من ناحية أخرى . . .

ولقد لجأ أهل السنة فى القرن الرابع إلى طريقة يقابلون بها أحزان الشيعة فى يوم عاشوراء ، وأفراحها فى يوم الغدير[1] ، على نحو ما كان يفعل بنو أمية

---

(١) هو يوم غدير خم الذى بايع النبى فيه عليا عليه السلام بالولاية قائلا : (من كنت مولاه فعلى مولاه . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه) ولصديقنا العلامة الجليل الشيخ عبد الحسين الأمينى النجفى فيه موسوعة عظيمة تبلغ بضعة عشر جزءاً ، طبعت مرتين فى النجف أولا ، وإيران ثانيا .

الذين اتخذوا من يوم عاشوراء يوم سرور وأفراح . . . فحين كان الشيعة يذوبون حزنًا ونوحًا على الحسين يوم عاشوراء ، كان أهل السنة فى عيد وسرور! وأول ما فعل ذلك فى القرن الرابع كان فى سنة ٣٨٩ هـ .

وما أكثر ما كانت تقع الفتن بين أهل السنة والشيعة . ولقد قبض معز الدولة البويهى على الخليفة العباسى المستكفى وأنزله من على العرش بصورة مهينة ، لأنه اتهم بأنه كان قد قبض على رئيس الشيعة . . . وما أكثر ما كانت تعطل الصلاة فى الجوامع بسبب الفتنة بين الطائفتين كما حدث فى سنة ٣٤٩ هـ ، ببغداد . ولقد شهدت سنة ٣٩٨ هـ ، حادثة الفتنة العظيمة بين أهل الكرخ ورجال السنة بقطيعة الربيع . وقد كاد يضيع فى هذه الفتنة محمد بن النعمان فقيه الشيعة ، وابن الأكفانى ، وأبو حامد الإسفرائينى من علماء السنة ، بسوء ما صنعه أحداث بغداد وأغرارها . . . وبلغت الحوادث حدًّا أحفظ الخليفة العباسىَّ « القادر » ، فأرسل الحرس الذين حول بابه لمعاونة أهل السنة . . .

ولا شك أن شاعرنا الشريف الرضى كانت تحز فى صدره حوادث الشغب والفتن بين طائفتين أختين من المسلمين ، وهما الشيعة والسنة . وذلك بما جبل عليه من التسامح والبعد عن التعصب . وهو تسامح ورثه عن أبيه الشريف الموسوى الذى كان يقوم دائمًا بدور المصلح الموفق بين المتخاصمين .

ولقد سجل التاريخ للشريف المرتضى دوراً نبيلا للوساطة بين السنة والشيعة ، فى أحداث سنة ٤٢٠هـ ، ويذهب مع قوم من مشايخ أهل الكرخ الشيعة إلى دار الخليفة القادر ، فيعتذرون من جناية مذهبية قام بها أحداث للكرخ . . .

ولعل من أطرف ما نختم به هذا الفصل ما رواه التنوخى فى « نشوار المحاضرة » من استغلال بعض الناس لهذا الخلاف ، فقد كان هناك سائلان ضريران يقفان على جسر بغداد ، ويتوسل أحدهما بعلى ، والآخر بمعاوية ! ويعطيهما الناس على قدر ولائهم وميولهم ، فإذا ما انصرفا آخر النهار — أو آخر اليوم — اقتسما ما جمعاه من النقود بالسويَّة لأنهما شريكان ! !

حـ ـ الحياة العقلية

على الرغم من اضطراب الأحوال السياسية فى القرن الرابع وكثرة الممالك والدويلات الجديدة فيه فإنه كان عصراً حيًّا حافلا بالحركات العلمية فى شتى نواحى المعرفة . ولقد امتاز هذا العصر بأنه احتشد فيه طائفة من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء ورجال اللغة والبيان قل أن يحتشدوا فى عصر واحد . . . ولا شك أن كثرة السلاطين والأمراء فى أنحاء المملكة الإسلامية كانت من أهم العوامل فى إبراز هذه النهضة . فإن نصراء العلم والأدب فى هذا العصر لم يكونوا الخليفة العباسى وحده ، أو واحداً من وزرائه وبعض عماله ، ولكنهم كانوا مجموعة من الملوك والسلاطين والأمراء والوزراء فى أشهر مدائن العالم الإسلامى .

ومن حسن حظ العلم والأدب فى هذا العصر أن الملوك دائمًا يحبون أن يتنافسوا فى الاستكثار من الأدباء والشعراء والعلماء حولهم ، وتقريبهم من بلاطاتهم . وكان هذا التنافس فى حد ذاته من مصلحة العلم والأدب . وحسبك أن يجتمع فى عصر واحد أمثال هذه الدول العربية الإسلامية ، وهى السامانية ببخارى ، والزيارية بجرجان ، والبويهية بالعراق وفارس ، والحمدانية بحلب وما بين النهرين ، والغزنوية بأفغانستان والهند ، والفاطمية بمصر ، ودولة الأمويين بالأندلس . واتسع الإنتاج العقلى العربى فدخلت فيه ثمار القرائح الإسلامية غير العربية من ترك وديلم وفرس وروم وغيرهم .

ولم يكتف سلاطين هذه الدويلات وأمراؤها بتشجيع العلم والأدب ، وحماية العلماء والأدباء وإيوائهم إلى أكنافهم الرحيبة ، بل كان عدد من هؤلاء الأمراء أدباء أو علماء أو شعراء . فعضد الدولة بن بويه كان له مشاركة فى عدة فنون من الأدب ، ولهذا قرب إليه الأدباء والكتاب والشعراء ، فكان منهم أبو إسحاق الصابى ، وأبو على الفارسى ، والمتنبى ، والسلامى . وعز الدولة بن بويه كان شاعراً ، وكذلك كان تاج الدولة بن بويه . وكان الأمير نوح بن منصور

السامانى راغباً فى العلم ، شديد الحرص على اقتناء الكتب ، حتى جمع مكتبة عظيمة أشاد بها الفيلسوف ابن سينا ، وقال إنه أفاد منها كثيراً . . . وكان قابوس بن وشمكير ملك الدولة الزيارية فى طبرستان أديباً عربياً ممتازاً ، وشاعراً ملحوظ المكان ، وله مراسلات عالية دارت بينه وبين الصاحب بن عباد . وكان سيف الدولة بن حمدان ملك الحمدانيين — فوق مزاياه فى الفروسية والحروب — أديباً شاعراً نقاداً حسن الذوق ، وقد روى الثعالبى طائفة حسنة من أشعاره وأخباره .

على أن أكثر هؤلاء الملوك قربوا إليهم العلماء والأدباء واستوزروهم ، وزادوا فى إنشاء المكتبات وجلبوا لها نفائس الكتب ولم يضنوا فى سبيلها بمخزون التلاد . فركن الدولة بن بويه اتخذ ابن العميد الكاتب المشهور وزيراً له ، واستوزر معز الدولة البويهى الكاتب الشاعر المهلبى ، واستوزر مؤيد الدولة بن بويه الصاحب بن عباد الأديب الشاعر العالم . وأراد السلطان محمود الغزنوى أن يستقدم إليه جماعة من العلماء الذين يحتشد بهم مجلس أمير خوارزم ، وفى جملتهم البيرونى المؤرخ الرياضى ، وابن سينا الفيلسوف الطبيب ، وأبو نصر الرياضى ، وأبو سهل المسيحى الفيلسوف . وسيف الدولة الحمدانى كان مجلسه حافلا بالشعراء ، حتى قيل إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك ما اجتمع ببابه من الشعراء . ومن الشعراء المطيفين به المتنبى ، والسرى الرفاء ، والببغاء ، والنامى ، والوأواء الدمشقى ، وأبو فراس الحمدانى .

أما المكتبات الكبرى فكانت طابع هذا العصر الذى تنافس فيه الملوك والأمراء بمصر والعراق والشام والأندلس على إنشائها . وكان طلاب العلم يفدون على هذه المكتبات للاغتراف من مناهلها ، فما سدت أبوابها أمام طالب ، ولا أوصدت دون راغب ، ومن هذه المكتبات مكتبة الأمير نوح بن منصور السامانى التى أفاد منها ابن سينا الفيلسوف كما سبق القول ، ومكتبة الحكم بن الناصر بالأندلس التى كان يوفد الرجال والتجار لشراء الكتب لها من كل صوب ، مهما كانت أثمانها . وهو الذى بذل لأبى الفرج الأصبهانى ألف دينار ذهباً على

أن يبعث له بنسخة من كتابه « الأغانى » قبل أن يرسله إلى الخليفة العباسى . ولا ننسى هنا المكتبة التى أنشأها العزيز بالله الفاطمى فى القاهرة ، والتى أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمى وأسماها دار الحكمة ، أو دار العلم ، فقد كانت هذه الخزائن تعج بآلاف الآلاف من الكتب فى شتى فنون العلم والأدب والشعر والتاريخ والطب والفلسفة واللغة والفقه .

ولو أخذنا نعد المكتبات وخزائن الكتب العامة والخاصة التى أنشئت فى ذلك العصر لطال بنا المجال ، ويكفى أن نشير هنا إشارة عابرة إلى مكتبة « سابور بن أردشير » وزير بنى بويه فى الكرخ غربى بغداد ، ومكتبة ابن حمدان الموصلى الفقيه الشافعى الذى كان لا يمنع إنسانًا من دخولها والإفادة منها ، وكان هو نفسه يجلس فيها ويملى من شعره وشعر غيره ، ثم زاد فى الفضل فكان يمد المعسرين من الطلاب بما هم فى حاجة إليه من المال . ومكتبة أبى على بن سوار من حاشية عضد الدولة ، فقد أقامها فى مدينة رام هرمز على شاطئ الخليج العربى .

على أن الشريف الرضى نفسه أنشأ داراً سماها دار العلم[1] ، وفتحها لجميع الطلاب ، وعين لهم جميع ما يحتاجون إليه من الكتب ومن كل شىء حتى دهن السراج . . . ولما علم بأن خازن دار العلم كان غائبًا حين احتاج أحد الطلبة إلى دهن لسراجه وليس معه مفتاح لخزانة الدهن ، أمر بأن يتخذ للخزانة مفاتيح بعدد الطلبة ، ليستعمل كل طالب مفتاحه دون حاجة إلى الخازن . . .

ومما لوحظ فى الحياة الأدبية بهذا العصر أن الشعراء كثروا فيه كثرة لم يشهدها عصر إسلامى سابق ، وأصبح المسلمون من غير العرب لهم مجال فى الشعر كما كان لهم مجال فى فروع العلم والأدب المختلفة . وماجت العراق والشام ومصر

---

(١) أنشأ أخوه الشريف المرتضى أيضا مدرسة أسماها دار العلم ، ووقف قرية من قراه تصرف مواردها على قراطيس الفقهاء والطلبة . وروى صاحب « روضات الجنات » أن خزانة كتبه ضمت ثمانين ألف مجلد وقومت هذه الكتب بثلاثين ألف دينار على ما رواه الثعالبى فى يتيمة الدهر ، ونقله رشيد الصفار المحامى فى مقدمته لديوان المرتضى .

والأندلس والمغرب وخراسان وتركستان وطبرستان والأهواز وجرجان وبخارى وخوارزم ونيسابور بالشعراء من أمثال مهيار الديلمى ، وأبى الحسن على بن عبد العزيز ، وأبى العلاء السروى ، وقابوس بن وشمكير ، وأبى الحسين المرادى ، والبوشنجى وغيرهم . . .

ولوحظ على الشعر فى هذا العصر زيادة أغراض جديدة فيه تلائم روح المجتمع العربى الجديد وظروف الحياة فيه ، كشعر الإخوانيات ، والشكوى من الزمان ، والعتاب ، والزهد ، والمداعبات والفاكهات ، والسلطانيات ، والمقارضات ، والزهريات . ولا نريد أن نقول إن هذه الأبواب كانت جديدة كل الجدة ، فلقد ظهرت نماذج منها فى العصور السابقة ، ولكنها فى هذا العصر صارت ، بارزة مستقلة .

وإلى جانب علوم الأدب واللغة والفقه والكلام والتاريخ والجغرافية التى نمت فى هذا العصر ، زاد الاشتغال بالطب والفلسفة والفلك والرياضيات . وبلغ عدد أطباء بغداد وحدها فى عهد المقتدر العباسى ٨٦٠ طبيبًا . ويكفى أن ابن سينا من رجال هذا العصر فى الطب والفلسفة ، وأن البيرونى من رجال الفلك والرياضيات ، وأن جماعة إخوان الصفا كانت من ثمار هذا العصر .

ولقد بلغ اهتمام العرب والمسلمين فى هذا العصر بالأرصاد السماوية حدًّا عظيمًا ، فالمرصد الحاكمى يقام بمصر على جبل المقطم ، والسلطان البويهى شرف الدولة يأمر برصد الكواكب السبعة فى مسيرها وتنقلها فى بروجها على نحو ما كان يفعله المأمون العباسى فى زمانه ؛ فيبنى داراً محكمة للرصد فى آخر البستان بدار المملكة سنة ٣٧٨ هـ .

ولم تكن المرأة العربية المسلمة فى هذا العصر بعيدة عن مجال العلم وخاصة علوم الدين ، فنرى الحافظة المحدثة ستيتة أمة الواحد المتوفاة سنة ٣٧٧ هـ ، وكانت من أحفظ الناس للفقه الشافعى ، والحافظة أمة السلام المتوفاة سنة ٣٩١هـ ، والواعظة ميمونة بنت ساقولة المتوفاة سنة ٣٩٣ هـ .